مواجهة بدعة الحلول الشيئية

بقلم: الدكتور أحمد أديب أحمد

يقول تعالى: (أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ).

إنَّ محاولاتِ تَحريفِ الكتبِ السَّماويَّةِ والأحاديثِ النَّبويَّةِ وأحاديثِ الأئمَّةِ الْمَعصومينَ لَمْ تَتَوَقَّفْ يومًا، بل تَعَدَّى الأمرُ ذلكَ إلى تَحريفِ أقوالِ أهلِ العصمةِ الذين قالوا عن اللهِ سبحانَهُ وتعالى: (لا يُقَالُ لَهُ: شَيءٌ، ولا يُمَثَّلُ به شَيءٌ، ولا تُضرَبُ له الأمثالُ، ولا بهِ)، فجُعِلَتْ بعد التَّحريفِ: (لا يُقِلُّهُ شيءٌ)، لِتَكُونَ حُجَّةً لِجَعْلِ الشَّيءِ مَاهيَّةً للحَقِّ عزَّ وَجَلَّ!

وقد احْتَجُّوا بقوله تعالى: (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ)، فهل هذا القولُ يُثبِتُ الحلولَ الشَّيئِيَّ على اللهِ وهو القائل: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ)؟ فلماذا لم يَقُلْ: (شَيْءٌ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) وكلامُ القرآنِ دقيقٌ جدًّا؟

مِن هذهِ الآيةِ يمكنُ اسْتِنْبَاطُ إمكانيَّةِ القول: (شيءٌ) إثباتًا للوجودِ وإسقاطًا لِحَدِّ الإنكارِ والعَدَمِ، لِئَلاَّ يَحْتَجَّ أهلُ العَدَمِ بالتَّوَهُّمِ، ولفظُ (الشَّيء) هنا يُطلَقُ مَجَازًا لا حقيقةً لقولِ الإمام علي الرِّضا (علينا سلامُهُ): (قد يُطلَقُ على الحقِّ تعالى اسمُ الجوهرِ والجسمِ والذَّاتِ والشَّيءِ، وكلُّ ذلكَ على سبيلِ الْمَجَازِ والتَّقليدِ، لا على سبيلِ التَّوحيدِ والتَّجريدِ)، وذلكَ للدَّلالةِ على التَّنزيهِ عن أقوالِ أهلِ التَّشبيهِ والحُلول، وإسقاطًا لِحَدَّي الإنكارِ والشِّركِ.

ولو كانَ الشَّيءُ ماهيَّةً للهِ لكانَتْ الأشياءُ كلُّها مَخلوقةً مِن هذا الشَّيءِ، وهذا يُخَالفُ قولَ الإمامِ محمَّد الباقرِ (علينا سلامُهُ): (إنَّ اللهَ خَلَقَ الأشياءَ لا مِنْ شَيءٍ، فَمَن زَعَمَ أنَّ اللهَ خَلَقَ الأشياءَ مِن شَيءٍ فقد كَفَرَ)، فهل الخالقُ كالْمَخلوق؟ وهل القديمُ كالْمُحدَثِ؟ وهل الرَّبُّ كالْمَربوبِ؟

أليسَ إثباتُ حلولِ اللهِ بالشَّيءِ هو تَشبيهٌ لَهُ بالشَّيءِ، وكلُّ شيءٍ مخلوقٌ لا محالةَ، والإمامُ جعفر الصَّادقُ (علينا سلامُهُ) يقولُ: (مَن زعمَ أنَّ اللهَ في شيءٍ أو مِنْ شيءٍ أو على شيءٍ فقد أَشْرَكَ، ولو كانَ اللهُ عزَّ وَجَلَّ على شَيءٍ لكانَ مَحمُولاً، ولو كانَ اللهُ في شيءٍ لكانَ مَحصُورًا، ولو كانَ

اللّهُ من شـيءٍ لكانَ مُحْدَثًا)، فهل يجوزُ أن يكونَ اللّهُ مَخلُوقًا واللّهُ يقولُ: (اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَـيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)؟ فالشَّيءُ دائمًا مخلوقٌ.

حتَّى أنَّ الْمُقارناتِ بالأشـياءِ كلَّها خَاطِئَـةٌ وتَشـبيهيَّةٌ حيثُ قالَ رجلٌ بحضرةِ الإمامِ جعفر الصَّـادقِ (علينا سـلامُهُ): اللّهُ أكبرُ، فقالَ الإمام: مِن أيِّ شَـيءٍ؟ فقال الرَّجل: مِن كلِّ شَـيءٍ. فقالَ (علينا سـلامُهُ): لقد حَدَّدْتَهُ. فقال الرَّجلُ: ما أقولُ يا مولاي؟ فقال (علينا سلامُهُ): (قُلْ: اللّهُ أكبرُ مِن أن يُوصَفَ).

فالإمامُ جعفر الصَّادقُ (علينا سلامُهُ) رَفَضَ أن يكونَ قولُ الرَّجلِ: اللّهُ أكبرُ مِنْ كلِّ شَيءٍ كَي لا يَقْرُنَهُ ويُشَبِّهَهُ بالأشياءِ، فكيفَ نُثْـبِتُ عليهِ إذًا الْمَاهيَّةَ الشَّيئِيَّةَ والحلولَ بالشَّيءِ وقد قال (علينا سلامُهُ): (إنَّ اللّهَ لا يُشبـِهُ شَيئًا ولا يُشبـِهُهُ شيءٌ، وكلُّ ما وَقَعَ في الوهمِ فهو بـِخِلافِهِ) تَنزيهًا له عن الشَّيئيَّةِ.

فإذا احتجُّوا لِيَقولوا لنا: كيف نَعرفُهُ إن لم يكنْ شَيْئـًا؟ نُذكِّرُهم بالقولِ الْمَأثورِ عن عُلَمَائِنا: (لا يُعرَفُ الشَّيءُ إلاَّ بـِما فَوقَهُ، أرفَعُ ما فينا العَقلُ، والحقُّ تَعالى فَوقَ العَقلِ)، هذا يعني كما قالَ أميرُ الْمُؤمنين الإمامُ علي (م): (به يُعرَف العقلُ لا بالعقلِ يُعرَفُ)، وهذا قول صـريحٌ على أنَّ الشَّيءَ هو العقلُ، والحقُّ تعالى فَوقَهُ.

فإنْ سـألَ سـائلٌ: إذا نَفَيْنَا عَنْهُ اسْمَ الشَّـيءِ دَخَلَ في بابِ العَدَمِ! قُلْنَا له: إنَّ هذا القَولَ لا يُلزِمُنا لأنَّنا نَعتقدُ بالوجودِ وَنَنفِي عنه الأسماءَ والصـِّفاتِ والأفعالَ والأعراضَ، فلا يَجوزُ في الحقيقةِ أن يُقالَ له: "شَـيءٌ أو جسـمٌ"، والشَّـيءُ فيه ضَـعفٌ من خَمسـةِ أوجهٍ لأنَّه عَرَضٌ، والعَرَضُ لا يَقومُ بنَفسِهِ. وإنْ قالوا: هُوَ شَيءٌ أزَلِيٌّ والأشياءُ كلُّها مَخلوقةٌ! نردُّ عليهم بقولِ الإمامِ جعفر الصَّادق (علينا سلامُهُ): (هذهِ مَقولَةُ مَن جَحَدُوا مُدَبِّرَ الأشياءِ)، وهُمْ أهلُ الحُلُولِ الجَاحِدُونَ الْمُشركونَ.

والخلاصةُ: إنَّ اللّهَ لا يُقالُ له: شَيءٌ، ولا يُمَثَّـلُ بهِ شَيءٌ، ولا عَلى شَيءٍ ولا في شَيءٍ ولا مِن شَيءٍ، ولا يُشْبـِـهُ شَيئـًا ولا يُشْبـِـهُهُ شَيءٌ، ولا تُضرَبُ لَهُ الأمثالُ، ولا بهِ، مُكَوِّنٌ ومُبْدِعٌ ومُشِيءٌ، (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ).

نكتفي لعدم الإطالة والله أعلم

الباحث الديني الدكتور أحمد أديب أحمد